

كتاب الحروف

تأليف الفيلسوف « أبي نصر الفارابي »

تحقيق الدكتور « محسن مهدي »

عدد الصفحات ٢٥٤ . دار المشرق - بيروت ١٩٧٠

كان الكتاب العرب يعتبرون « أبا نصر الفارابي » أفهم فلاسفة المسلمين وبعدهونه أكبر المناطقة بعد (ارسطو طاليس) ، حتى أنهم أطلقوا عليه اسم « المعلم الثاني » . وعلى الرغم من ان (الكندي) الذي اشتهر باسم « فيلسوف العرب » كان أول من تنبه قبله الى دراسة الفلسفة اليونانية فاننا لا نجد لديه مذهباً فلسفياً كاملاً على العكس من (الفارابي) الذي استطاع أن يضع أصول الفلسفة الإسلامية ومبادئها وأن يصوغها في صورتها المتميزة . وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن « ليس شيء مما في فلسفة (ابن سينا) و (ابن رشد) الا وبدوره موجودة عند (الفارابي) » ويروي عن (ابن سينا) انه أعاد قراءة كتاب « ما بعد الطبيعة » (لارسطو طاليس) أربعين مرة دون أن يفهمه أو يدرك المقصود به الى أن عشر على « شرح فلسفة ارسطو طاليس » للفارابي فانكشفت له أغراض الكتاب . ومن المعروف أن كثيراً من كتب (الفارابي) قد ترجمت الى اللغة اللاتينية والعبرانية فكان لها تأثير كبير في فلسفة القرون الوسطى . .

كان (الفارابي) واسع الثقافة ، بارعاً في مختلف الفنون ، متضلعا من علوم اللغة والرياضيات والكيمياء والفلك والموسيقى والطبيعات والإلهيات والعالم المدني والفقهاء والمنطق . وقد عالج موضوعات كثيرة ولكن من المؤلفات أكثر مؤلفاته قد ضاع لانه ، كما قال ابن خلكان ، كان يكتبها « في رقاع مثورة وكراريس متفرقة » ويتبين من فهرس رسائله وكتبه أن القسم الأكبر منها عبارة عن شروح وتعليقات على فلسفة (افلاطون)

و (آرسطو طاليس) و (جالينوس) . الا أن مؤلفاته التي وصلت إلينا تتضمن أيضا كثيرا من الابحاث الخاصة والآراء الذاتية التي انفرد بها . هكذا نراه مثلا في كتاب « الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهي و آرسطو طاليس » يحاول التوفيق بين الاتجاهين المختلفين المثالي والواقعي . وفي كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » نلاحظ أنه ، على الرغم من اقتباسه بعض الافكار الواردة في كتاب الجمهورية (لافلاطون) ، يأتي بآراء خاصة ويحاول انتقاد الاوضاع السائدة في عصره . .

ان نزعة (الفارابي) الى الاستقلال بالرأي في تفسيره لفلسفة (آرسطو طاليس) والكشف عن طريقة تفكيره وعن أغراضه تتجلى لنا كذلك في كتابه « الحروف » الذي ينشر نصه الآن لأول مرة بعد أن كنا لا نعرف سوى اسمه وبعض الفقرات المنقولة عنه .

ان الدكتور (محسن مهدي) ، الذي صدر له في سنة ١٩٥٧ ، كتاب « فلسفة ابن خلدون في التاريخ » باللغة الانكليزية ، كان استاذا مساعدا في قسم اللغات والحضارات الشرقية قبل أن يصبح ، مؤخرأ ، استاذا للدراسات العربية في جامعة (هارفارد) . وقد انصرف منذ سنة ١٩٥٤ الى التنقيب عن مؤلفات (الفارابي) المفقودة ، فنشر في سنة ١٩٦١ كتاب « فلسفة آرسطو طاليس » (طبع في بيروت ، دار مجلة شعر) بعد ان تولى تحقيق النص العربي ومقارنته بالترجمة العبرية . ثم نشر كتاب (الفارابي) في « الالفاظ المستعملة في المنطق » (طبع في بيروت سنة ١٩٦٨) .

وقد اطلع الاستاذ (محسن مهدي) في سنة ١٩٦٥ على النسخة الخطية الوحيدة من كتاب « الحروف » (للفارابي) في مكتبة جامعة (طهران) . ولم يكن من قبل يعرف أي شيء عن هذه المخطوطة ، فأسرع الدكتور (محسن مهدي) الى نسخها . وها هو ينشر الكتاب في دار المشرق (بيروت . ١٩٧٠) بعد أن قام بتحقيقه والتعليق عليه وبعد أن كتب له مقدمة مستفيضة . .

تستعمل لفظة (الحروف) بمعان مختلفة : منها حروف التهجي . وقد بحث (الفارابي) في الحروف بهذا المعنى في أحد فصول كتابه ولكن تسمية الكتاب لا ترجع الى هذا السبب . وتطلق لفظة (الحروف) أيضا على نوع من أقسام الكلام والالفاظ الدالة التي يسميها علماء النحو (حروف المعاني) . و (الفارابي) يبحث في الحروف بهذا المعنى في الدرجة الاولى ولكنه لا يقتصر على ذلك بل يتكلم كذلك على كثير من الالفاظ التي يسميها النحاة أسماء ، فهو يبحث في الموضوعات الأولى للصنائع والعلوم وأسماء المقولات المتفقة أسماؤها والمتواطئة والمتباينة والمترادفة والمشتقة ، وفي أشكال الالفاظ وتصريفها وفي معنى النسبة والاضافة وفي العرض والجوهر والذات والموجود والشيء وفي حرف « إن » وما يقابلها في اليونانية والفارسية ، وفي حروف السؤال : « متى » و « ما » و « أي » و « كيف » و « هل » ويميز بين الاسئلة الفلسفية وحروف السؤال في العلوم والصنائع القياسية من جدل وخطابة وشعر .

إن موضوع كتاب (الحروف) للفارابي هو البحث في طرق التعبير عن الشيء . فهو يهتم قبل كل شيء بالناحية المنطقية والفلسفية ولكنه يتعرض أيضا الى علاقة المنطق بالنحو .

وقد اقتبس (الفارابي) لفظة (الحروف) عن (أرسطو طاليس) كما يتبين من مقالة له عنوانها : « أغراض الحكيم في كل مقالة من الكتاب الموسوم (بالحروف) وهو تحقيق غرض (أرسطو طاليس) في كتاب « ما بعد الطبيعة » . فان كل مقالة من مقالات كتاب « ما بعد الطبيعة » عرفت بحرف من حروف التهجي اليونانية التي كانت توضع على المقالات كأرقام وعلامات لها . وقد اشتهرت مقالة (حرف الدال) خاصة بأنها قاموس للمصطلح الفلسفي و « هي تنظر في حروف المعاني وتفصل دلالاتها والجهات التي تقال عليها . » . ويقول ابن رشد في تفسير كتاب « ما بعد

الطبيعة» عن هذه المقالة « انها هي التي بينا فيها على كم نوع تقال الاسماء المستعملة في هذا العلم » .

وفي الحقيقة فان كتاب (الحروف) يمكن ان يعتبر تفسيراً لكتاب (أرسطو طاليس) في « ما بعد الطبيعة » . وقد أورد المحقق الدكتور (محسن مهدي) شواهد عديدة تثبت هذه الصلة ، ولكنه في الوقت نفسه أشار الى الفروق بين الكتابين . فان (الفارابي) رغم اقتدائه بكتاب « ما بعد الطبيعة » لم يتبع ترتيبه التقليدي كما انه لم يقتصر على أقوال (أرسطو طاليس) ، بل نراه قد توسع في مناقشة الاختلافات في معاني المصطلحات حتى شمل بحثه عدة لغات مثل اليونانية والسريانية والفارسية والصفدية بالإضافة الى العربية مع ذكر أساليب الترجمة من لغة الى اخرى . كذلك لم يقف (الفارابي) عند بعض الملاحظات الواردة في كتاب « ما بعد الطبيعة » عن أصل اللغات وانما استفاض في الكلام على هذا الموضوع وقدم لنا دراسة شاملة عن نشأة اللغة والدين والفلسفة وتطور كل منها والتأثيرات المتبادلة بينها وعن انتشار العقائد الدينية والآراء الفلسفية عبر الحدود القومية واللغوية .

وللكشف عن أسباب اهتمام (الفارابي) بالمسائل اللغوية وتعمقه في بحثها ثم اتقانه اللسان العربي يعود الدكتور (محسن مهدي) الى ظروف حياة الفيلسوف والاحداث التي مرت به فيذكر الاخبار التي تتحدث عن صلته بالعالم النحوي المشهور (ابن السراج) الذي درس عليه (الفارابي) صناعة النحو مقابل دراسة (ابن السراج) المنطق على (الفارابي) .

وعند الكلام على (ابن السراج) يلاحظ علماء اللغة منذ القديم تأثره بطريقة المنطقيين في كتابه « الأصول » . واذا كان (الفارابي) لا يذكر شيئاً عن (ابن السراج) في كتاب « الحروف » فلا شك في أنه أخذ عنه بعض ما يقوله في هذا الكتاب عن آراء النحويين العرب وأقوالهم في نشأة اللغة .

ولعلنا لا نبتعد عن الحقيقة اذا قلنا ان (الفارابي) قد أفاد كثيرا من اتصاله (بابن السراج) ، الذي لم يكن نحويا فحسب ، بل كان ذا ثقافة واسعة ، عميقة في فنون اللغة والادب . واذا رأينا القدماء يجمعون على الإشادة بما امتاز به (الفارابي) من اشراق العبارة وصحتها وحسن الاشارة بالعربية في علوم شاع فيها قبله سقم العبارة والغموض فان الفضل في ذلك يرجع ، على الأرجح ، الى مصاحبته (لابن السراج) .

كذلك يشير الدكتور (محسن مهدي) الى المناظرة المشهورة بين العالم اللغوي (أبي سعيد السيرافي) من جهة والفيلسوف المنطقي (أبي بشر متى بن يونس) من جهة أخرى . فقد جرت هذه المناظرة ، التي يرويها (أبو حيان التوحيدي) في كتاب « الإمتاع والمؤانسة » ، في أثناء اقامة (الفارابي) ببغداد واعتبرت في الاوساط العلمية انتصارا للنحو على المنطق اذ ظهر جهل (متى بن يونس) باللغة العربية وقواعدها وعجزه عن الرد على (السيرافي) واقناع الحاضرين بأن المنطقي لا يحتاج الى النحو . وتذكر الأخبار ان (الفارابي) كان قد أخذ عن (متى بن يونس) قبل ان يتولى بنفسه التدريس ويملي على التلامذة شروحه لكتب (أرسطر طاليس) . ولا يستبعد أن يكون هؤلاء التلاميذ ، كما تصور الاستاذ (محسن مهدي) ، قد وجهوا الى (الفارابي) الأسئلة اللغوية التي أثارها (السيرافي) وعجز (متى بن يونس) عن الاجابة عليها . وهكذا يبدو أن (الفارابي) ربما أراد الرد على مزاعم (السيرافي) فلم يقتصر على شرح معاني (الحروف) في كتاب « ما بعد الطبيعة » ، بل توسع في بحث أصل اللغة ونشأة النحو وتعرض الى صلة اللغة بالفلسفة والملة والى طبائع اللغات واختلاف اصطلاحها وتكلم على علاقة الشكل اللفظي بالمعنى العقلي وكيفية نقل المعاني من لغة الى أخرى .

ويمكن القول أن هذه الابحاث في فلسفة اللغة لم ينظر فيها أي مفكر

اسلامي من قبل أو من بعد بهذا التفصيل والعمق اللذين امتاز بهما
(الفارابي) .

يتبين لنا من هذا الاستعراض ان كتاب (الحروف) يجب أن يعد
من أكثر مؤلفات (الفارابي) فائدة لجميع الذين يهتمون بدراسة الفكر
الاسلامي عامة وفقه اللغة العربية خاصة . وأبرز ما يلاحظه الناظر في
هذا الكتاب اليوم الشروح الواقية لمعاني المصطلح العلمي - الفلسفي
في العربية ولغات أخرى والتعريف بما عمله المترجمون عند نقلهم هذا
المصطلح من اليونانية والسريانية . ولا ريب في أن آراء (الفارابي) في
اصل اللغة واكتمالها وعلاقتها بالفلسفة والملة تستحق كل عناية واهتمام .

محمد كامل عياد

* * *